الموضوع الحادى عشر

المؤمن كالأُترجة

عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله تعالى عنه - قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر».

[أخرجه مسلم فى صحيحه (١/ ٥٤٩) رقم (٧٩٦) واللفظ له، وأخرجه البخارى فى صحيحه (٦/ ٢٧٤٨) رقم (٧٦٢١)]

هذا الحديث نحن كلنا أحوج إليه، وهو يتكلم عن القرآن، وعن الذين يعملون به، وعن هؤلاء الذين لا يقرءون القرآن، فالحديث فيه جميع الأقسام.

وقد رواه الإمام البخارى فى باب فضائل القرآن، ورواه الإمام مسلم فى باب فضيلة حافظ القرآن، ورواه الإمام الترمذى، والإمام أبو داوود، والإمام النسائى فى كتاب الإيمان، وابن ماجة فى باب فضل تعلم القرآن، أى حديث متفق عليه لا خلاف عليه.

عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال رسول الله ﷺ: مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجة "التاء مسكنة والهمزة مضمومة والراء مضمومة أيضاً .

الأترجة ريحها طيب (الأترجة تجمع بين طعم ورائحة الأناناس والتفاح، وهى موجودة فى المزارع، والمؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومن منا لا يحب هذا الشيء الجميل .

ومثل المؤمن "هو مؤمن عنده إيمان فى الأساس"، والذى لا يقرأ القرآن فهو شيطان مشغول ولا يهتم، يقول: يكفى أنى أُصلى، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل تمرة لا ريح لها ولكن طعمها حلو.

إذًا المؤمن فى خير لكن الأفضل والأخير والأحسن الذى يقرأ القرآن .

«ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر» (يعنى عندما يأكلها لا يستمتع بها، أى عنده مظهرية يتاجر بالقرآن يتفلسف بالقرآن)؛ لأنها ليست سائغة للآكلين، وإنما هى سائغة لمن؟ للذين يستنشقون عطرها الفواح .

طعمها مر، أى: غير مستساغ فهو أشبه بالعطر والريحان، والورود، رائحتها جميلة، ولكنها لا تؤكل فإن أكلتها وجدتها مُرَّة؛ لأن الله تعالى وضع فيها الرائحة، ولم يضع فيها الحلاوة، إنما وضع الله تعالى ﷻ الرائحة، والحلاوة فى المؤمن .

«ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن » هو منافق فى الأصل، وفى الوقت نفسه فإنه لا يقرأ القرآن .

فالمؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها حلو لكن ليست لها رائحة، فإذا كان منافقًا ولا يقرأ القرآن فمثله كمثل الحنظلة .

الحنظلة فى حجم البطيخة الصغيرة ولكنها يابسة، جافة، لو كسرت فإن رائحتها لا تطاق (حنظل) ورغم ذلك فإن هذا الحنظل يشفى أمراضًا معينة، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح من الخارج وطعمها مر (يقول لك مثل الحنظل)، أى من الخارج ليس لها رائحة مثل البطيخ، وإذا كسرت من داخلها تفوح منها رائحة قد لا تكون مقبولة .

وفى رواية أخرى مثل الفاجر بدلاً من المنافق الذى يقرأ القرآن أو الفاجر الذى لا يقرأ القرآن بدل المنافق .

هناك مجموعة أمور جميلة بين يدى الحديث الشريف: النبى الكريم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، يبدأ الحديث بالفاكهة كمثل الأُتْرُجة، وهذه الأُتْرُجة تجمع بين أفضل أنواع الفاكهة ريحًا وطعمًا، أى من حيث الريح ومن حيث الطعم .

نعنى أن القرآن الكريم هو أفضل فاكهة على وجه الأرض، فهذا من باب التشبيه أو من باب التمثيل، إنه بدأ بالفاكهة فاختار فاكهة فيها تمازج بين فواكه كثيرة ملقحة إن صح التعبير، ومعنى هذا أن القرآن الكريم مع استدامة قراءته واستدامة حفظه هو فاكهة المسلم فى هذه الحياة، هو عطاء الله تعالى لعباده، وهذه الفاكهة على اختلاف أنواعها وعلى اختلاف ثمارها، فإنها تتمايز فيما بينها، (عنب، وموز، وتفاح، وخوخ، ومشمش) كل هذه فواكه ولكن لكل فاكهة طعم .

كذلك المسلمون هم فواكه، ولكل منهم طعم، ولكل منهم لون، ولكل منهم رائحة، ولكل منهم أسلوب فى الطريقة، وفى العبادة، وفى العطاء، والذى يبحث عن أن يكون الناس على شاكلة واحدة فهذا خطأ كبير، فلا بد أن يتفاوت الناس، أولادك فى المنزل، كل منهم يتفاوت فى موضوع يختلف عن الآخر.

والناس فى أعمالهم اليدوية أو الذهنية كل واحد منهم له عطاء يختلف عن الآخر تمامًا، فمن الممكن أن يوجد عمل يحتاج إلى جهد عشرين ويؤديه واحد، هكذا علمنا النبى العظيم ﷺ .

الفاكهة دائماً لها رائحة جميلة عطرية، كذلك القرآن يُعطى جمالاً وعطرًا لمن يكتسبه ولمن يقرؤه، الفاكهة من أطيب وأخير ما هو موجود على الأرض من المأكولات ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ أى أن الله تعالى أشاد بالجنة لما فيها من فاكهة، كذلك أفضل ما فى الأرض القرآن العظيم .. هذه واحدة .

وأفضل من فى الأرض لما أُخرِج الناس أهل القرآن لا خلاف، وآخر مَنْ فى الأرض هم أهل القرآن، «خيركم من تعلم القرآن وعلمه »، فالخيرية القرآنية، لو افترضنا أننا هنا فى مسجد (٢٠٠) شخصًا، من هم أفضل من فى المسجد وثلاثة أو أربعة الذين يحملون كلام الله تعالى، استأمنهم الله تعالى على كتابه .

«الخيرية مع القرآن» ولذلك فإن خير من فى الأرض، وأحسن من فى الأرض، وأجمل من فى الأرض هم أهل القرآن .

الفاكهة تريح النظر؛ وهى متدلية من أشجارها فى منظر جميل، فى منظر بديع يوحى لك بالعطاء، يوحى لك بالركوع، يوحى لك بالسكينة، هذه الفاكهة، كلما رأيتها، وهى متدلية فى الحدائق استشعرت أن الله تعالى يقربك إلى نعيم الجنة، ونعيم الجنة لا ينفد ولا يزول، ويتفاوت الناس فى نعيم الجنة على قدر حبهم للقرآن، «فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها».

المنزلة القرآنية:

عرفنا أن خير من فى الأرض هم أهل القرآن الذين يحبون المصحف، يتعلقون بالمصاحف، كل يوم يفتح أحدهم المصحف، يبحث عن آية، يبحث عن كلمة، مشغول بالقرآن كما ينشغل الناس بمباريات كرة القدم، ويحللونها، ويجلسون بعدها ساعات بل أيامًا مشغولين بشىء معين تافه أو غير تافه، هذا لا يعنينى، إن الذى يعنينى أن الذى ينشغل بالقرآن، تكون له منزلة قرآنية فى الدنيا ومنزلة قرآنية فى الآخرة.

منزلة قرآنية فى الدنيا أن الله تعالى يرفعه بالقرآن، يرتفع بالقرآن الكريم كقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، يرفع الله مكانة المؤمنين المخلصين منكم، ويرفع مكانة أهل العلم درجات كثيرة فى الثواب ومراتب الرضوان، والله تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شىء منها، وهو مجازيكم عليها، وفى الآية تنويه بمكانة العلماء وفضلهم، ورفع درجاتهم، أى يرفع الله به أقوامًا فى الدنيا،

(بالقرآن) ويضع آخرين، الذين يهملون والذين تناسوا القرآن، ولم يحتفظوا به، ولم يعملوا به، ولم يستضيئوا بنوره، ولم يعايشوا جماله، ولم يأخذوا من أنواره، ولم يستمتعوا بأسراره، ولم يتذوقوا حلاوته، «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

كما ذكرنا من قبل بأن هناك رجلاً عالمًا كبيرًا وله كتبٌ وله مؤلفات، وله صولات وجولات، فلما مات رآه فى المنام أحد أبنائه الذين كان يعلمهم القرآن، أى: أحد تلامذته فقال له: ماذا فعل الله بك يا شيخنا يا أستاذنا (أين أنت)؟

فقال له: إنى فى أعلى فراديس الجنان .

قال له: وما الذى بلغك؟ (كيف بلغت هذه المنزلة) ؟

قال له: لأن الذى بقى لى فى صحيفتى أننى كنت أُعلِم الصغار (سورة الفاتحة) .

ولذلك يقول النبى العظيم ﷺ: مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن، أى: عنده إيمان وعنده قرآن، شابه أفضل أنواع الفواكه وهى الأُتْرُجة، هذا تمثيل عظيم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، إن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ يرشد الناس إلى أحسن الطرق، وهى ملة الإسلام، ويبشر المؤمنين الذين يعملون بما أمرهم الله به، وينتهون عمَّا نهاهم عنه، بأن لهم ثوابًا عظيمًا .

إذا تأملنا الفاكهة – أيضًا – لوجدنا أن الفاكهة تزداد حلاوة يوماً بعد يوم على سبيل المثال: (المشمش، أو الخوخ، أو البرتقال) فى تباشير الإنتاج منه أول الموسم فإنه لا يكون حلواً بالدرجة الكافية ثم يبدأ يحلو، ويحلو، هكذا صاحب القرآن يحلو مع القرآن، كما أن الفاكهة تتنزل فيها الحلاوة، كذلك فإن الذى يحب القرآن تتنزل عليه الطلاوة هكذا نستمع إلى هذه الآية لعلها توضح لنا، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

[الإسراء: ١٠٥]، وبالحق أنزلنا هذا القرآن على محمد ﷺ لأمْرِ العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، وبالصدق والعدل، والحفظ من التغيير والتبديل، وما أرسلناك -أيها الرسول- إلا مبشرًا بالجنة لمن أطاع، ومخوفًا بالنار لمن عصى وكفر.

اختلاف مذاق الفاكهة واختلاف مشربها، واختلاف ما يُعصر منها - أيضًا - نفس الكلام فى اختلاف حالة الإيمان عند أهل القرآن، ولكنهم يرتفعون به ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧].

لقد تحدثنا عن أمرين: الأمر الأول: هو الخيرية مع القرآن .

والأمر الثانى: هو المنزلة القرآنية، أى: أن منزلتك فى الدنيا وفى الآخرة متعلقة بمدى حبك وتعلقك وانشغالك بالقرآن الكريم، فالمرأة التى مات عنها زوجها، والمرأة التى طُلقت، الرجل الذى يعيش وحيدًا، المسافر بعيدًا غريبًا، كل هؤلاء يجعلون أنسهم بكلام الله، فهو الذى يذهب الوحشة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، أى: ويهدى الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله وذكره فتطمئن، ألا بطاعة الله وذكره وثوابه تسكن القلوب وتستأنس!

بدأ النبى العظيم ﷺ الحديث بالأُترجة إشارة إلى شىء مهم، وهو أن القرآن الكريم يحلى صاحبه، ويجمل صاحبه، ويعطيه جمالاً وتوفيقًا وسعادة فى الدنيا والآخرة، ويعطيه هداية، أى: صار هاديًا مهديًا بالهداية القرآنية، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فمن يشأ الله أن يوفقه لِقَبول الحق يشرح صدره للتوحيد والإيمان، ومن يشأ أن يضله يجعل صدره فى حالةٍ شديدة من الانقباض عن قَبول الهدى، كحال مَن يصعد فى طبقات الجو العليا،

فيصاب بضيق شديد فى التنفس، وكما يجعل الله صدور الكافرين شديدة الضيق والانقباض، كذلك يجعل العذاب على الذين لا يؤمنون به.

الحقيقة أن الحديث الشريف فيه معانٍ قوية جدًا؛ لأنها معانٍ نبوية عالية شريفة تستغرق منا وقتًا كى نتزود منها .

«ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها» لكن طعمها حلو .

استخدام النبى ﷺ للفاكهة فيه أسرار كبيرة، لاستخدامه التمر مع كلمة المؤمن، فهو مؤمن ولكن لا يقرأ القرآن، ممكن أن يسمع القرآن ويقول لك: أنا كنت حافظاً وأنا صغير والآن لا أحفظ منه شيئاً .. ذهب القرآن وبقى الإيمان.

هذا كالتمرة طعمها جميل، ولكن ليس لها رائحة إشارة إلى أن المؤمن يستمد نوره، ونور وجهه، ونور قلبه من القرآن العظيم، وإشارة إلى تعدد أنواع التمر أو التمور، كذلك تعدد مراتب الإيمان عند المؤمنين الذين ليسوا من أهل القرآن يعنى كما أن الناس الذين هم من أهل القرآن يتفاوتون فى المنزلة القرآنية، كذلك المؤمنون الذين ليسوا من أهل القرآن يتفاوتون فى منزلتهم الإيمانية، ولكنهم فى مرتبة إيمانية أقل فأين:

الذى صلى الفجر فى أول جماعة ؟

الذى صلى الفجر فى الجماعة الثانية ؟

الذى صلى الفجر فى الجماعة الثالثة ؟

الذى استيقظ قبل الفجر وصلى ركعتين ؟

صلاة الفجر واحدة لكن اختلف الناس فى المعانى، كلكم مؤمنون ولله الحمد، ولكن إذا كنتم قرآنيين من أهل القرآن فأنتم فى الخيرية، فى المنزلة القرآنية، فى منزلة الهداية، وإذا لم تكونوا قرآنيين ولم تنشغلوا بالقرآن، فأنتم مؤمنون – أيضًا – ولكنكم فى مرتبة أدنى من المرتبة الأولى .

التمر جميل ومُغذٍ ومشبع ومقوٍ ويزيد مناعة الإنسان، والتمر، أو اللبن، أو ماء زمزم يستطيع الإنسان أن يحيا بواحد منها خاصة إذا اجتمع التمر مع الماء فهو طعام وغذاء وشفاء بإذن الله تعالى، ومن هنا فإن الإيمان غذاء مثل التمر، ولكنه يحتاج إلى زيادة، يحتاج إلى رائحة، وهذا لا يأتى إلا بالقرآن العظيم، إلا بنور القرآن العظيم .

لماذا تحرم نفسك ؟

لماذا تحرمون أنفسكم من نور القرآن الكريم؟ لماذا تهجرونه ؟

قال الرسول ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، أى: وقال الرسول شاكيًا ما صنع قومه: يا ربِّ إن قومى تركوا هذا القرآن وهجروه، متمادين فى إعراضهم عنه وتَرْكِ تدبُّره والعمل به وتبليغه، وفى الآية تخويف عظيم لمن هجر القرآن فلم يعمل به.

هل تريد أن تكون هاجراً مهجورًا ؟

أم تكون طيباً محباً للقرآن العظيم؟

إننى أعجب جدًا من كل شاب أو شابة معه مصحف فى صدره فى قلبه، معه مصحف فى حقيبته أو حقيبتها، كلما جلس فى مكان فإنه يخرج المصحف، وإننى أُسَر جدًا عندما أجد بعض الشباب أو الشابات والمصاحف لا تفارقهم، هذا شىء جميل جدًا، هذه علامة من علامات التوفيق ومن علامات الهداية .

بين العصمة والخذلان:

إذا كنت من أهل القرآن فأنت من أهل العصمة، فإن القرآن يعصمك، يصونك، يحميك، يحافظ عليك فى صغرك، وفى تقدم عمرك، ويحفظك فى قبرك، ويؤنس عليك قبرك، هذا معنى العصمة، وأما الخذلان أن الله تعالى أعطاك نورًا لكنك لم تحافظ على هذا النور، استأمنك الله على النور العظيم لكنك

ما حافظت عليه، هل أنت معتقد أن هذا النور الذى لم تحافظ عليه سيبقى بجوارك يستعطفك؟ لا، سيذهب إلى غيرك فقد تحولت من أهل العصمة إلى أهل الخذلان، أى: أهل الحرمان.

ليس المحروم هو الذى لا يأكل اللحم إلا فى كل سنة مرة، أو ليس المحروم الذى لا يلبس فى العيد جديدًا، أو ليس المحروم الذى لم يتعلم فى الجامعة.. لا، وإنما المحروم الذى حرم نفسه من نور القرآن وهو بين يديه، ورغم هذا هناك مسافات واسعة، وهناك مدة زمنية كبيرة بينه وبين القرآن، فتمر عليه الأيام يوماً بعد يوم وهو لا يقرأ، ويتذرع بمثل تلك الأمثال الشعبية وهى ((بعد ما شاب ....)) التى فيها تعجيز الناس عن التعلم والذهاب إلى الكُتاب بعد شيب الرأس، فالتعلم يكون من المهد إلى اللحد.. إذاً يجلس من حرم قراءة القرآن، ويتعلم ويحفظ، ويتقدم مع القرآن وأهله.. كأن الناس الذين يكتبون هذه الأمثلة يستمدونها من فكر فيه تثبيط لهمة الناس؛ لأجل هذا فإن المسلم ينتقل من الخذلان إلى المعصية عندما يكون من أهل القرآن، وإذا ظل على هجران القرآن، فهو من أهل الحرمان، فهو محروم من نور الله تعالى، محروم من الله ﷻ، محروم من عطاء الله ﷻ، رغم أن الله تعالى كرمك، ورغم أن الله تعالى أعزك، فانظر كيف كرمك الله تعالى، وكيف أعزك الله ؟

تحدثنا عن الصنفين، وهما: المؤمن فى حالة كونه قارئًا أو صامتًا، فإذا كان قارئًا فهو (كالأُتْرُجة)، و إذا كان صامتًا فهو (كالتمرة) .

أما المنافق فإنه إذا كان قارئًا فإنه كالريحان كما أخبر النبى العظيم ﷺ، والريحان نبت فيه ريح طيب (كالعطر) مثلاً ، فأى نبت يفوح منه ريح طيب اسمه ريحان .

وقال النبى العظيم ﷺ: «إذا أعطى أحدكم الريحان فلا يرده» يعنى إذا أهدى لك طيبًا أو ريحانًا فلا ينبغى أن ترده؛ لأنه من ريح الجنة، ومن رائحة

الجنة، فإن الريحان كل شيء يفوح منه ريح، إنه جميل ورائحته طيبة، ولكن هل لك أن تأكله (لا) لماذا لا تأكله؟ لأن الله تعالى جعل فيه خاصية أساسية وهى خاصية الريح الطيب، هكذا المنافق فهو منافق من حيث القلب، عمله ليس مستأنسًا لكن من حيث العمل فإنه قرأ القرآن، فالقرآن أعطاه رائحةً طيبة، أى: الريحان أو الريح يضرب به المثل على المنافق الذى يقرأ القرآن فالقرآن يعطيه رائحةً طيبة؛ لكنه من حيث الداخل لا زال قلبه فيه مشكلة، الإيمان لم يستقر فى قلبه بصورة كافية، بصورة قوية، لا زال المنافق متأرجحًا متذبذبًا بين الإيمان وبين عدم الإيمان، لازال يحمل فى قلبه غلاً، أو حقدًا، أو حسدًا، فعندما يقرأ القرآن، يضاء وجهه بالفعل، (بالإيمان)، وإذا فتحنا قلبه نجده لازال مُراً، لازال علقَماً، ولكى يستوى الظاهر مع الباطن يتحول المنافق من ريحان إلى أترجة . لكن متى يتحول؟

فالهداية الحقيقية إذا صلى أحدهم الفجر، وبعد الصلاة أقبل على الناس يسلم عليهم ويصافحهم بصدر منشرح، كإخوانه، وأحبابه، وأبنائه، هذا هو الإسلام، فالاتفاق اتفاق الظاهر مع الباطن، وليس كالذى يصلى بجانب أخيه المسلم ويحمل له فى صدره العداوة، ويدعو عليه وهو يصلى فهذا نفاق، وكالذى يقدم نفسه ليأخذ نعمة يستحقها غيره فهذا نفاق؛ لذلك فإن النبى العظيم ﷺ أشار إلى أن الريحانة تعطى رائحةً طيبةً ولكن من حيث الأساس فإن طعمها مُر، أو لا طعم لها، ويعلمنا ﷺ أن المنافق رغم كونه منافقاً لكن القرآن الكريم يعطى له إضاءة وليس هذا فقط، الكافر وهو كافر رغم كونه كافراً لو قرأ القرآن يغير معالمه، ما الدليل؟

الدليل هو أنّ الوليد بن المغيرة عندما تكلم مع النبى ﷺ يفاوضه ويغريه فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠] .

ولقد كرَّمنا ذرية آدم بالعقل وإرسال الرسل، وسَخَّرنا لهم جميع ما فى الكون، وسَخَّرنا لهم الدواب فى البر والسفن فى البحر لحملهم، ورزقناهم من طيبات المطاعم والمشارب، وفضَّلناهم على كثير من المخلوقات تفضيلا عظيمًا.

والنبى ﷺ يسمع ولا يرد وهو يقول له: سنعرض عليك كذا وكذا، وكل ما يأتى فى حيل البشر، فإن الوليد بن المغيرة يعرضه على رسول الله ﷺ، والنبى ﷺ فى حالة صمت لا يرد عليه، بل يتركه يخرج ما عنده كله ثم إذا ما انتهى الوليد، وقرأ عليه النبى ﷺ أوائل سورة فصلت وللحقيقة "السورة كلها مزلزلة " وسأقرأ لك منها آية مما استمع إليها الوليد كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

فقضى الله خلق السموات السبع وتسويتهن فى يومين، فتم بذلك خلق السموات والأرض فى ستة أيام، لحكمة يعلمها الله، مع قدرته سبحانه على خلقهما فى لحظة واحدة، وأوحى فى كل سماء ما أراده وما أمر به فيها، وزيَّن السماء الدنيا بالنجوم المضيئة، وحفظاً لها من الشياطين الذين يسترقون السمع، ذلك الخلق البديع تقدير العزيز فى ملكه الكبير، وهو عليم أحاط علمه بكل شىء.

فخرج الوليد، وقيل فى بعض الروايات: إنه كان يضع يده على فم النبى ﷺ يقول له: أستحلفك بالله والرحم لا تكمل (لن أتحمل) فلما خرج الوليد قابله الكفار، فقالوا: لقد أقبل الوليد بوجه غير الذى دخل به على محمد، لقد أقبل أى خرج الوليد بوجه آخر غير الوجه الذى دخل به على محمد ﷺ.

الوليد بن المغيرة كان كافرًا، وكان أشد الناس عداوة لله ورسوله ﷺ، ورغم هذا فإنه عندما استمع إلى هذه الآيات فإنه تأثر، وتأثر دمه، وتأثر لحمه، وتأثرت عظامه، فخرج الوليد من عند النبى ﷺ بوجه آخر تماماً بملامح مختلفة

تماماً عن تلكم الملامح التى دخل بها على رسول الله ﷺ حتى اعتقد الناس أنه أسلم من النور الذى وجدوه على وجهه رغم كونه كافراً، وإذا كان هذا هو حال الكافر مع القرآن فكيف حال المنافق؟

المنافق الذى لا يقرأ القرآن فهو (كالحنظلة، كالعلقم) الذى فى حجم البطيخة الصغيرة وهو أخضر لكنه عندما يجف يصير لونه أصفر من حيث الظاهر، فإنه أصفر كالكرة الصغيرة، وإذا فتحته تفوح منه رائحة منفرة قوية جدًا حنظل وعلقم، وهكذا المنافق حنظل وعلقم، اجتمع فيه سواد القلب وسواد الوجه ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

ويوم القيامة ترى هؤلاء المكذبين الذين وصفوا ربهم بما لا يليق به، ونسبوا إليه الشريك والولد، وجوههم مسودة. أليس فى جهنم مأوى ومسكن لمن تكبر على الله، فامتنع من توحيده وطاعته؟ بلى، اجتمع فيه سواد الوجه مع سواد القلب أصبح منافقًا؛ لأن مذاقه شديد لا يحتمل.

هذه التصنيفات الأربعة الجميلة التى قالها النبى العظيم ﷺ تعلمنا منها أن القرآن الكريم فضل ولكونه فضلاً، فإنه يعطى الفضل لمن علَّمه، ويعطى الفضل لمن تعلمه حتى لو كان منافقاً، وفضل القرآن الكريم على الناس أجمعين، فعلى المؤمن له فضل، وعلى المنافق له فضل، وعلى الكافر له فضل، فيكون فضل القرآن الكريم على الناس أجمعين.

اللهم إنى أسألك بنورك ونور وجهك الكريم، وسلطانك العظيم توبة صادقة، وأوبة خالصة، وإنابة كاملة، ومحبَّة غالية، وشوقًا إليك، ورغبة فيما لديك،

وفرجًا عاجلاً، ورزقًا واسعًا، ولسانًا رطبًا بذكرك، وقلبًا منعَّمًا بشكرك، وبدَنًا هيناً ليناً بطاعتك، وأعطنا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اللهم إنَّا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، ومن الخوف إلا منك وأعوذ بك من أن أقول زوراً، أو أغشى فجوراً، أو أكون بك مغروراً، ونعوذ بك من شماتة الأعداء، وعُضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعم، وفُجاءة النقم، وارزقنا حلاوة مناجاتك، واسلك بنا سبيل مرضاتك، واقطع عنا كل ما يبعدنا عنك وعن خدمتك وطاعتك، وأنقذنا من غفلاتنا، وألهمنا رشدنا، وحقق فيك قصدنا، واسترنا فى دُنيانا وآخرتنا، واحشرنا فى زُمرة المتقين، وألحقنا بعبادك الصالحين، اللَّهُم اجعلنا من الأئِمة الأبرار، وأسكنَّا معهم دار القرار .